مملكة المرأة

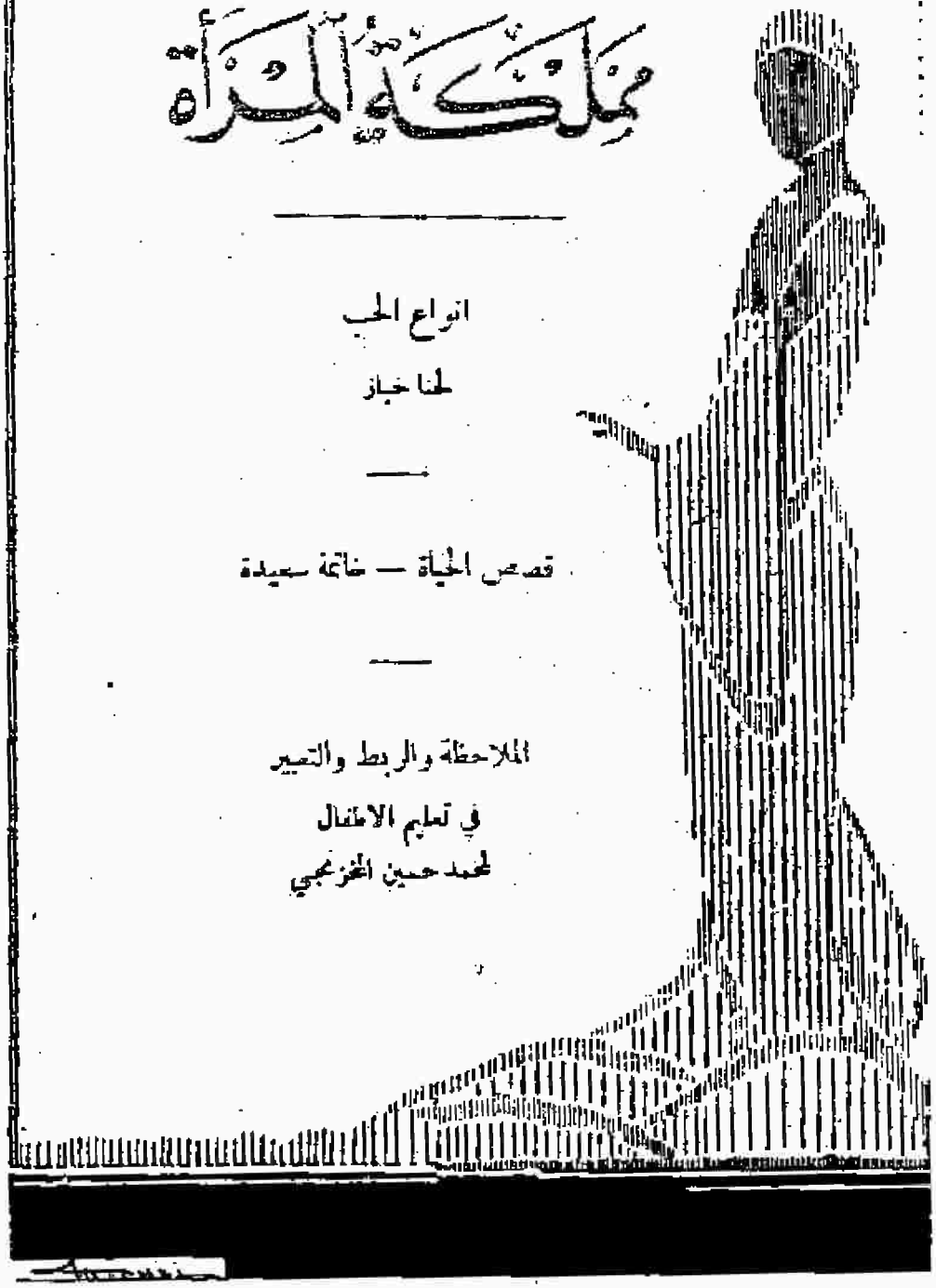

انواع الحب

لحنا خباز

قصص الحياة — خاتمة سعيدة

الملاحظة والربط والتعبير

في تعليم الاطفال

لمحمد حسين الخزنجي

الحق أقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات . . . ومن أصغر احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي خير له ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر (انجيل متى)

انواع الحب

لهنا عباد

الفتاة : لقد غذّيتَ نفسي يا والدي ، بما املَيته عليَّ في « صامتات الحب » . فهل لك ان تنوّر ذهني في انواع الحب ؟

الوالد : يا فتاتي العزيزة — الحياة ، وهي اكثر شيوعاً من الحب ، لست ارى لها معنى من دون الحب . فالحب هو معنى الحياة . ولكن البلاء هو ان الناس يلوكون كلمة « حب » بألسنتهم ، او يحركون بها اقلامهم ولكن ضياء الحب لم يندَّ على رواني تفكيرهم ، فهم يخبطون في ظلام دامس . وفيما هم يزعمون انهم ينشرون الحب اذا هم يطوونه

ف : ان قلبي ليرتاح الى ما تنشر . فتفضل ارني جلاء ذلك النسيج الالهي

و : اني اراكِ تلاطفين كلبكِ فتطعمينه ، وتغسلينه ، وتمشطينه ، وتقبلينه . افيجوز ان ندعو ذلك حبًّا ؟

ف : بلى . ولكن أهذا ما تريد ان تنشر ؟

و : فاذكري اوّل كل اول حبّنا البهائم ، كالكلاب ، والقطط ، والطيور ، والجياد . وحسبُ ذلك نوعاً اولاً من الحب . ثمّ اراكِ تعطفين على خادمتكِ « هدية » . وقد قلت انك تحبينها . أليس كذلك ؟

ف : بلى اني أحبها ، على اني اجد فارقاً بين خادمتي وكلبي . فكلبي ملكي ، وليست خادمتي كذلك

و : مع ذلك تحبينها . فهل تساوين بينهما ؟ واذا جاعا ، وعندك رغيف واحد من الخبز فقط ، فايهما تطعمين ؟ واذا ماتا فمن يحزنكِ اكثر ؟

ف : لا اشك في اني احرص على الاثنين . واذا ماتا فلا ادري ايهما يحزنني اكثر . على اني اشعر بميل خاص لكلبي ، لانهُ لي

و : فهل ترين ان حبك الخادمة نوع آخر من الحب !

ف : نعم . واراه حبّ استحسان

و : ولكِ ايضاً صديقة عزيزة هي « سهير » وهي شخص ثالث يتناول رعايتك . فتسهرين عليها ، وتسعينَ في مصلحتها ، فحبُّك لها غير حبك للكلب وللخادمة

ف : اني احب صديقتي سهير يا ابتا

و : فهل تساوين بينها وبين الكلب والخادمة ؟ ولماذا لا ؟ وما الفرق بين الاثنين في عقلك وقلبك ؟

ف : صديقتي سمير اقرب الى قلبي ،لانها اقرب الى مستواي . وبيني وبينها تفاهم ليس هو بيني وبين الكلب او الخادمة . وطبيعي ان الحب يلد الحب . فهي تحبني حبًّا جمًّا ، هو غير حب الكلب وحب الخادمة . فترى اني احبها غير حبيبها

و : وكلبك ايضاً يحبك

ف : ان حب الكلب لي غير حب صديقتي ، اذ لا اختصاص فيهِ . فهو يحبّ ايّا يكون مالكه . اما سمير فتختصني بالحب دون سواي . ولها عندي منزلة عالية لا يبلغها كلب ولا غزال . فهي حبيبتي بصلة التفاهم الروحي ، والمؤانسة ، ورفعة المقام ، ولانها اثمن واوثق من الخادمة والكلب

و : فحب الصديقة الودود نوع آخر من الحب . ثم ان لك والدة حنون . عرفتها وعاشرتها قبل كل مخلوق . وهي التي لكِ ، واعطف عليكِ ، من كل مخلوق . فما قولك في حبها ؟ آترين انهُ غير ما ذكرنا من انواع الحب ؟

ف : والدتي فوق كل شخص آخر . لانها احبتني اولاً . ولان بيني وبينها تضامناً ليس هو بيني وبين سواها . وهي مخلصة لي ، مضحية في سبيلي باكثر مما يضحي بهِ كل انسان آخر . فانا ووالدتي روح واحدة في جسدين

و : فهذا نوع آخر من الحب

وهل يمكنكِ ان تتصوري شخصاً آخر تحبينه وتلاصقينه اكثر من والدتك ؟

ف : اذا حصل ذلك ، وهو الى الآن لم يحصل ،فهو نوع آخر من الحب . واظن انكِ تعني بهِ القرين

و : اياهُ اعني . فترين ان امامنا على بساط البحث خمسة انواع من الحب ١ً حبك الكلب ٢ً الخادمة ٣ً الصديقة ٤ً الوالدة ٥ً الزوج . وهذه الانواع الخمسة متفرعة عن اصل واحد هو حب الذات . فتحبين ما ذكرنا لانك تحبين ذاتك . والمجنون ، وهو لا يحب نفسه ، او انهُ ، بعبارة اضبط ، لا يعرف ان يحب نفسه حبًّا صحيحاً ، فهو كذلك لا يحب احداً من الناس

ف : واراك لم تذكر « حب الجمال » الذي لا يبنى على حب الذات غالباً ، فانا نحب الجمال لذاته

و : واي جمالٍ تعنين ؟ الجمال الجزئي ام الجمال الكلي !

ف : افهمني الفرق بينهما اولاً

و : اعلمي يا عزيزتي ان الجمال نوعان : مجرّد واضافي :

فالاضافي هو الجمال في الجميل . او هو الشخص الجميل . وهذا لا يكون الاّ جزئيًّا . كالورد الجميل ، والحديقة الجميلة . اما المجرد فهو الجمال بالذات ، كالبياض غير مقيّد بالابيض ، او كالمودّة غير مقيدة بالودود . وقد اختلف الفلاسفة في أيّ الاثنين هو الموجود ، او هو الاصل في الوجود . فذهب افلاطون الى ان المجرّد هو الموجود . وان الاضافي هو ظله وظاهرته . وذهب ارسيلوطاليس الى ان الاضافي هو الموجود . والمجرّد تصوّر منتزع من متعدّد . وعندنا انّا لا نعرف

البياض ، بل نعرف الابيض كالورد الابيض ، والثلج الابيض ، والورق الابيض ، والوجه الابيض ، فانتزعنا صفة البياض المشتركة بين هذه الاشياء فقلنا — البياض — ولكنَّ البياض في ما نرى لا وجود لهُ لولا الاشياء البيضاء . كذلك رأينا الورد الجميل ، والطاووس الجميل ، والنقد الجميل ، والوجه الجميل ، والشعر الجميل ، والصنع الجميل ، فانتزعنا الصفة المشتركة من بين هذه الاشياء ، فقلنا — الجمال — على ان الجمال لا وجود لهُ ، في عقولنا ، لولا الجميل . فالجمال والبياض وامثالها من الكليات ، لا وجود لها عند ارسطوطاليس الاَّ في الموصوفات بهما

وسواء صحَّ رأي افلاطون ، او رأي تلميذه ارسطوطاليس ، أعني سواء كان المجرَّد هو الموجود ، او الاضافي ، فالمجرد أعم من الاضافي ، والكلي اكبر من الجزئي . هذا الجمال هو غرض النفس ، فوظيفة الذوق العقلي فينا ادراكه اولاً ، واختياره ثانياً . والرغبة فيهِ والميل اليهِ هو الحب هذا هو الفن . وهذا هو التدين . فالجمال خالق الحب ، في شرع افلاطون ، وفي من نحا نحو افلاطون . واني من اولئك الناحين

فاذا تناول الحب جمالاً جزئيًّا — فلاناً او فلانة — فهو ما يدعونهُ العشق والهوى . وهو فرع من الحب . وتختاره النفوس الصغيرة المحدودة . واكثر الناس هم من هذا الصنف . وفحوى هذا الحب : اني اريد الجميل : ان أراه : ان امتع بهِ : ان امتلكهُ ، وذلك اثرة ، فاحفظي هذه الكلمة « أثرة » ففيها اعظم اسرار الاجتماع البشري . ان الاثرة هي العامل في اكثر من تسعة اعشار حركاتنا ، ومصدر اكثر من تسعة اعشار بلايانا

اما اذا تناول الحب ما هو مجرد لا ما هو اضافي ، فذلك هو الفن والتدين . فالفن يتناول الكلي والمجرد لان الجزئي يؤلف عملاً فرديًّا فلا يحسب العمل الفردي فنًّا . اما المجرد فالفن يؤلف الفن والفلسفة والدين . وفحوى حبه : اني اريد ان يمتلكني ، ان يلتهمني ، ان اتلاشى فيهِ : وهذا هو الايثار . فاحفظي هذه الكلمة « الايثار » فانها ثاني آثار الآلهة فينا . والاثر الاول هو « الجمال » « فالجمال والايثار » تراث الآلهة في الناس

ف : شكراً يا والدي . اني اود ان اكون كليَّة ، فأحب الجمال اكثر مما احب الجميل . وان اكون من ربات « الايثار » لا من عبيد « الاثرة » . ولكن ما ذا ترى في الناس باعتبار الموقفين ؟

و : لكل انسان وطنان الغبراء اعتباران . اعتبار نظري ، واعتبار عملي . ففي النظري هو سام كلي مجرد . أفليس الانسان هو الذي أدرك المجرد العام الكلي ، وآثرهُ على الجزئي الاضافي الخاص ؟ ولكنهُ بالاعتبار العملي هو غيرهُ . خذي لذلك مثلاً على ذلك داود النبي . فهو قائد ، وملك ، وشاعر ، وتقي . ومن تصفح مزموراته لا يرتاب في عظمة شخصيته ، وجمال نفسه ، وطهارة وجدانه . على ان التوراة التي بين ايدينا ترينا داود عمليًّا غير هذا الذي تراهُ في مزموراته . فقد صعد الى السطح فرأى فتاة جميلة تستحم ، فعلقها ، وافترسها ، ثم سعى لقتل زوجها اوريا واختص بها ذاته . فداود

هذا غير داود الشاب الجميل النفس . هناك تراهُ عالي الكلمة ، بعيد النظر ، نزيه العاطفة ، عظيماً محترماً . وهنا تراهُ قصير النظر ، ضعيف الارادة ، يخون الصديق ، ويأتي فعلة السفهاء

ولا أخالك تطمعين في أن ترَي كثيرين من بني حواء افضل من سيدنا داود — بحسب رواية التوراة — قال باسكال : ليس الانسان ملاكاً ، ولا حيواناً ، ولكن الحيوان متملك فيهِ

ويؤول ذلك الى استعار حرب روحية في نفس الانسان ، لانهُ يود التحرر من رق الحيوانية ، وفي وصف هذا الجهاد ما ليس في الياذة هوميروس ، ولا في الاوديسا . وقد ألمع الى ذلك الشاعر ملتن في كتابهِ الفردوس الضائع والفردوس المستردّ . وفي ملتن ترى مواقف النفس امام الجمال . كما انك ترى ذلك في كتاب « الاخلاق » لسبينوزا

ف : حسناً جداً ! واني احب ملتن واشعار ملتن ، لانها تسوق نفسي الى عاطفة عالية ، وتريني عواقب الاستسلام للهوى . وما قولك يا بابا في العشق او الهوى الشائع في الناس ؟

و : اقول لك الصدق يا عزيزتي اني لا اؤمن بالعشق والهوى ، بل اراهُ مرضاً في النفس على انهُ في اول اطواره لا يخرج عن النوعين المذكورين . واعلمي يا عزيزتي ان العشق ينشأ عن اصلين اثنين . الاول الوهم . والثاني الامل . فالوهم هو اعتقاد العاشق ان في المحبوب سعادته وهناءتهُ . فيلوذ بهِ دون سائر الناس . وانك لتريْن ان ذلك لم يخرج عن « الاثرة » . فاذا كان هنالك امل في الحصول عليهِ عشقهُ . والاّ فلا . فلا يعشق العاقل امراً ثورة ولا يجنُّ في ما لا امل لهُ في ادراكهِ . فالوهم والامل والدا العشق . وهو مولود سخيف غالباً . والجنون هو انصراف العقل نحو موضوع واحد لا يكترث لسواهُ . فهو عبارة عن الايغال في الوهم والامل ، او التطرف والتمادي . على ان العاشق لو حصل على من جنَّ بهِ لفتر حبه ، وتناسى غرامه . وأرى ان مجنون ليلى ، وامثاله في كل أمة ، وفي كل جيل ، ليسوا الاّ من امثلة هذه السخافة الاجتماعية . واذا ارتقى الاجتماع الانساني تلاشى هذا النوع من الحب ونسجت على تاريخه العناكب فيحذف من سفر الوجود تسعة اعشار الناظمين . ولا يشتري احد شيئاً من الاشعار الغرامية الاّ من باب درس الخرافات والاساطير التي استبدّت بالبشرية في العصور الاشد ظلاماً . وأرى ان كل رواية غرامية لا تخرج عن احد امرين . الاول استغلال اموال المشاهدين — في ردهات السينما مثلاً — الثاني ردع الناس عن الغواية والسقوط وهما الامران المؤديان الى الدملو

ف : وما قولك في الحب والزواج ؟

و : سأتكلم في هذا الموضوع في الفصل السادس من فصول هذا الكتاب

ف : وما قولك في حبي من يحبني !

و : اشرت الى ذلك في حبك «سهير» وفي حبك الوالدة . وسنتكلم عنه في باب « حوافز الحب » وهو في ما ارى من باب الاخلاق اكثر مما هو من باب الحب

ومن وظائف الذوق فلسفة الفن ، بل فلسفة الفنون وهو حب زيه سام ، وان مازجهُ الغرض احياناً . واس هذا النوع من الحب هو حب الجمال للجمال لا لعلاقة مادية . فهو الحب بمعنى الكلمة . ودرجاته « المعرفة ، فالتفاهم ، فالميل ، فالائتلاف ، فالمودة ، فالارتياح » . وقد يشتد هذا الحب في مُثُل الفضيلة والاخلاص كحب يوناثان داود . وهو حب ديني . والديانة كالفن من اعمال الذوق العقلي الذي يدرك الجميل ويختاره . وخلاصة التدين انه استسلام القلب للجمال ، او « التجميل » فالتدين هو حب الجميل ، وهو الذي يدعوه افلاطون « الخير » والمثل الاعلى و« الجميل » وهو تعالى ، في متصور العقلاء اجمعين ، « جامعة المثل العليا » فهو الجميل ، النافع ، المؤنس ، الرفيق ، المحسن . وترتقي التدين في بعض المتصوفين الى درجة الغرام . زينَ ذلك في اشعار عمر بن الفارض القائل : —

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشًى بلظى هواك تسعّرا

وقصائد ابن الفارض في علم السلوك — حب الله — مثل في الارض كلها

ومن هذا القبيل مزمورات داود . حبيب الجمال . ومناجاة اوغطينوس . وكتابات توما الكمبيزي . وشواعر الغزالي . ومناجاة خفت . واحلام سويدنبرغ . وعواطف محيي الدين بن العربي ، وكشف رابعة العدوية . ونظريات يوناثان اودوردس . وانشيد فم الذهب . وتوسلات انطونيوس ابي الرهبان . يجمع هذا الصف ارق طبقات عشاق الجمال الكلي في كل العصور ، وتم الدين وقفوا حياتهم على أسمى المطالب

***

والخلاصة ان الحب فرعان نفساني وعذري ففي الاول خمسة انواع حب الاشياء والخدم والصديق والقريب والسند . وكله مبني على حبنا انفسنا

وفي الثاني فرعان نفسي « سيكلوجي » وأدبي « اخلاقي »

الاول حب الجميل لانه جميل . او الحب الافلاطوني . والثاني حب المتفضل وهو حب اقتصادي اخلاقي ولا انسى يا عزيزتي ان الفت نظرك الى ان الحب ليس موضوع مقالات صحافية ، بل هو موضوع شعور وحياة . ولا ارى شيئاً في التاريخ اكثر انطلاقاً من الحب . لان الناس يريدون ان يستغلوه ، فخدمتهم الحب او نداؤهم بالحب ، يشبه تصرف النادبات في المآتم ، فانهن يكين او يتباكين استطراداً للدموع ويأتين بعد ذلك لاستيفاء الاجرة . فابغالهن في اوصاف الفقيد وآلامهن وتهدلهن لا تخرج عن انها تمثل لنا غيرة الصحافيين على الحب ولكن في صورة أبسط ، فالحب فوق مستوى الناس . واعظم الناس حبًّا اقلهم فيه كلاماً . وهو مجهول الحقيقة عند الاكثرين . وليس الحب علماً بل هو فيض الهي ينشأ في النفس ويغير أوضاع الكائنات . وأكتفي الآن بما ذكر تاركاً ما بقي من شروح الحب لوقت آخر

قصة حياة — ٣

مفاجأة عجيبة

(في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً واثراً في نفسها . وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تنميق او تعديل حتى تغيير الاسم الصحيح ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تجلو قراءته او تجل فائدته ، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها عبر على الخالين نواح من حياة المرأة الغربية يحسن بنساءنا الاطلاع عليها)

اجمع كل اصدقائي على ان زواجي مقضيٌّ عليهِ بالخيبة . وجميع الدلائل كانت تدل على ان رأيهم كان في جانب الصواب . اذ كيف تستطيع فتاة مدلّلة ان تسعد في كوخ حقير ، حيث يحتّم عليها ان تقوم بجميع اعمال البيت وحدها ، وان تبذل جهدها كل اسبوع من كل ستر لتوفق بين الدخل اليسير والنفقات التي لا ندحة عنها ؟

ولكنهم كانوا على خطأ . بل ان خطأهم كان فاضحاً . واني لأرثي لهم الآن اذ اتبيّن مدى جهلهم بالطبيعة البشرية ، لانهم ظنّوا ان الكنس والغسل والطبخ في بيت الرجل الذي احبُّ ، لا بدَّ ان تكون من البواعث على شقائي ونكدي

كان زواجنا غريباً في بابهِ . فقد كنت ابنة ثريٍّ يملك طائفة من المصانع . وكان دونلد عاملاً في احد مصانع والدي . بل ان اسرة دونلد كانت قد قضت في خدمة اسرتنا اجيالاً متوالية

التقيت بدونلد في حفلة رقص اقيمت للعمال والموظفين . وكان ابي رجلاً صلب الرأي شديد المراس ، وكان يحتّم علينا دائماً ، انا وشقيقاتي ، ان نحضر هذه الحفلات . واذكر انني كنت مستاءة كل الاستياء لتحتيمه عليَّ الحضور في تلك الحفلة . ولكن استيائي زال بعد الرقصة الاولى ، لانني تعرفت في خلالها الى دونلد . كان شاباً مديداً قويّاً يختلف عن كثير من الشبان المدلّلين الذين كنت اجتمع بهم في دائرتنا الاجتماعية الخاصة . فاحسستُ في تلك الدقيقة ، ان دونلد هو الرجل الوحيد الذي استطيع ان اقبلهُ زوجاً لي

كان علينا ان نتخطّى حوائل كثيرة اعترضت طريقنا اهمها معارضة اسرتهِ واسرتنا معاً . نعم ! لقد لقينا معارضة من اسرتهِ بقدر ما لقينا من اسرتي . ذلك ان اسرة دونلد كانت معتزّة باصلها وكان يصعب على افرادها ان يتزوج احد ابنائها من اسرة تنظر اليهِ واليهم نظرة احتقار . وعلاوة على ذلك كانوا يعتقدون انني لست الزوجة التي تصلح لهُ . اذ ما هي مؤهلاتي لذلك ؟ هل اعرف او

ان اطبخ واصبح واكنس واكوي ؟ هل استطيع ان احفظ تفقات المائدة ضمن حدود دخله اليسير ؟ (وهنا لا بدّ ان اذكر ان والدي رفض ان يزيد اجور دونلد بعد زواجنا). وما كنت املك ردًّا على اسئلتهم هذه الاّ انني احبُّ دونلد وانني مستعدّة ان ابذل جهدي لاكون زوجاً صالحة له ، الزوج التي يرتقبها

ولست اباهي بانني وُفّقت فيما سميت اليه . فقضينا السنة الاولى من زواجنا على خير ما يرتجيه الانسان من الهناءة والرغد . فكنت احسُّ بغبطة عظيمة ان عليَّ واجباً اؤدّيه ، بعد ما كنت احسُّ في كل ما مضى من حياتي بفراغ لا اعرف كيف املؤه . فلما وُلد ابني شعرت بان كأس غبطتي قد امتلأت حتى كادت تفيض

ولكن ذلك لم يدم . فكان دونلد اول من بدت عليه امارات القلق . ذلك انهُ كان في بدء زواجنا يبذل بعض الجهد في ان يجري على بعض التقاليد المرعية في الدائرة الاجتماعية التي ترعرعتُ فيها . فكان لا يجلس الى مائدة الطعام الاّ وهو مرتدٍ جاكتتهُ . وكان يعنى بان يعمل بعض ما يبعث السرور في نفسي او ما حسبهُ هو من بواعث هذا السرور . فأعجبت بمحاولته هذه كلَّ الاعجاب . ولكن بعد قليل ، توقف عن كل هذا . ولعلّ اشقاءهُ ضحكوا منهُ لانهُ حاول ان يقلّد قوماً لم يكن هو منهم ارضاءً لزوجهِ ، ولعلّهم لمّحوا له انهُ بدأ يتعالى عليهم لانهُ تزوج ابنة « الرئيس »

وانني لادرك ان ذلك النزاع النفسي الذي عانهُ دونلد في تلك الفترة من حياتنا كان نزاعاً عنيفاً . فقد كان ممزقاً بين محبته لي واحتقاره الطبيعي لمن يحترم تقاليد قومهِ وطبقتهِ . فكان يقول : « ان ما كان يصلح لابي يصلح لي » ويجلس الى مائدة الطعام من دون جاكتتهِ او من دون ان يغسل يديهِ القذرتين . ومع ان حبي لهُ كان اعظم من ان يدع هذه الصغائر تؤثر في حبنا ، الاّ انهُ كان يرى نظرة الكآبة والامتعاض وعدم الرضا في عيني عند ما يفعل ذلك فيحسُّ بانهُ قد اخطأ

وبعدها اخذ النزاع بيننا يتجدد كل اسبوع او كل يوم ، مع انهُ كان في الغالب يدور على صغائر لا قيمة لها في الحقيقة

فلما كان ولدنا في الرابعة من العمر بلغت الحال بيننا من الشدة منتهاها

كان ذلك اليوم حافلاً بالحوادث الصغيرة التي لا تبعث على الطمأنينة والرضا . فلما جلست الى مائدة الطعام أنّبتُ ابننا « بيتر » على سلوكه . فانحاز دونلد الى جانب ابنهِ وقال لي بلهجة شديدة « دعي الولد وشأنه . على ماذا تريدين ان تنشّئيه ؟ على الدلال ؟ دعيه يأكل طعامهُ كما يشاء . انني لا اقبل ان ينشأ ابني مجموعة فارّة من قواعد السلوك المصطنع كأخوتك »

فاستأت لما قالهُ دونلد أمام ابننا . ولم تكن تلك المرة الاولى التي خاطبني بها بهذه اللهجة امامهُ . فقلت في نفسي أي نشأة ينشأ عليها هذا الطفل . بين والدين في نزاع دائم . فكظمت حنقي ولكنني لم استطع ان أتجاهل خوفي على مصير ولدي

وكنت دائماً أقف موقف المدافعة عن نفسي اذ يزورنا أقرباؤه زوجي ، شاعرة انهم يوجهون اليَّ النقد واللوم فيما بينهم . وكان دونالد يمتنع عن مقابلة اهلي عند مجيئهم لزيارتنا . فكان من شأن هذا التنابذ الدائم ان أثَّر في اعصابي . فأصبحت استثار لاقل حادث ، ولا استطيع ان امالك نفسي عن ان استشيط غضباً في وجه ابني

عند ذلك شعرت بأنني لا استطيع ان امضي في الاحتمال ، وانه لا بدَّ لي من ان افترق عن دونلد ، لان في هذه الفرقة فائدة لي ولهُ على السواء ، فعزمت ان اعود الى اهلي ، ولو كانت عودتي وقتيةً فقط ، لعلَّ ريحاً تهبُّ فتتغير الحال

***

كان اليوم الذي اتخذتُ فيهِ هذا القرار من ايام دسمبر القائمة الباردة . فجمعت بعض امتعتي الخاصة ، وكتبت كلمة الى دونلد بينت لهُ فيها قراري والباعث عليهِ ، طالبة منهُ المغفرة . ووضعت الظرف الذي يحتوي على هذا الكتاب في مكان يستطيع ان يراه فيهِ عند دخوله البيت ، وصعدت الى غرفتي لاعدَّ ابني للذهاب معي . واذ كنت في سبيل هذا ، سمعت باب البيت قد فتح واقفل وكنت اعلم ان احداً لا يملك مفتاحاً للدار غير دونلد . ولكنهُ لم يتعوَّد الرجوع الى البيت في مثل هذه الساعة . وسمعت خطواتهِ داخلاً الغرفة التي فيها الكتاب . ولبثت انتظر ما يكون منهُ عند قراءتهِ . فلم اسمع تأمةً . فدفعني فضولي الى النزول اليهِ . فوجدتهُ جالساً على ذراع كرسي ، ينظر الى الفضاء نظرة ساهية كئيبة ووجههُ شاحب متعب . فلما سمع وقع اقدامي التفت اليَّ وقال بصوت لم اكد أعرفهُ

« إذن هذه طريقتك الى الخلاص . اما انا فكنت قد فكرت في طريقة اخرى ... ولكن ذلك لا يهمُّ الآن »

انني احبُّ هذا الرجل . وكل طريقة يفكر فيها للخلاص مما كنا فيهِ تهمني . بل ان كل طريقة تحول دون افتراقي عنهُ تفضل طريقتي

فجثوت على ركبتي امامهُ وتوسلت اليهِ ان يقول لي ... ان يحول دون افتراقي عنهُ

وبعد قليل اتضح لي انهُ كان قد قضى الاسابيع الاخيرة يفكر في حالنا ، فتحقق انهُ يتعذَّر علينا ان نمضي فيما نحن عليهِ ، وانهُ يستحيل علينا ان نحفظ حبنا من ان تشوبهُ الشوائب اذا بقينا في بلدتنا بين اهلنا ومعارفنا . فاستقال من عمله واتفق مع احدى جمعيات المهاجرة على ان نسافر الى كندا واعدَّ جميع المعدات لذلك

الى كندا ! هناك ابدأ حياة جديدة مع دونلد وبيتر . حياة لا بدَّ ان تكون حافلة بالمصاعب والمغامرات . ولكن ذلك لا يهمني ما زلت معهما . ونحن مسافرون في صباح الغد

الملاحظة والربط والتصوير

في تعليم الاطفال بطريقة دكرولي

لمحمد حسين الخزنجي
الاستاذ بمعهد التربية بمصر (١)

﴿ دروس الملاحظة ﴾ الغرض من دروس الملاحظة هو تعويد الاطفال تدوين مذكراتهم الخاصة عن كل ما يحيط بهم من الظواهر وتشجيعهم على البحث عن اسباب هذه الظواهر والحقائق التي يشاهدونها بأنفسهم والتحقق من نتائجها وآثارها . كما ان دروس الملاحظة تعرض امام الطفل مشاكل الحياة المعقدة ونواحيها المتعددة بشكل عملي ملموس ، كما تفتح على التطور فيدرس تطور حياة الانسان والحيوان والنبات

وتكون دروس الملاحظة « عرضية » عن طريق الحوادث وما يقع تحت حس الطفل اثناء العام الدراسي فيلاحظ نمو النباتات في حديقة المدرسة ويترقب ولادة الحيوانات او موتها . كما يلاحظ التغيرات الجوية اثناء النهار وتعاقب فصول السنة وحركة الشمس والقمر

وليس المقصود من الملاحظة ان يشاهد الاطفال هذه الكائنات وهذه الظواهر ويتركونها ادراكاً حسيًّا فقط ، بل ترمي مدرسة دكرولي الى ما هو اجدى من هذا وأنفع وهو تشجيع التلاميذ على التفكير في كل ما يشاهدونهُ ، والبحث بأنفسهم عن اسبابها ونتائجها والتغلب على كل ما يصادفهم من المشاكل

لذلك تعمل المدرسة الدكرولية على ان تهيىء للتلاميذ بيئة طبيعية يجدون فيها الظواهر والكائنات الحية والنباتات وكل ما يجب ان يتعرفه الطفل

وأساس دروس الملاحظة هو التشويق . فعليه كما يقول دكرولي يتوقف انتباه الاطفال ، وهو العامل الاكبر في النشاط والانتاج الفكري . فمهمة المدرّس هي التأكد من معلومات وتجارب الاطفال السابقة حتى يتمكن من ان يوجد لهم مواد وموضوعات شائقة طريفة لم يروها من قبل ويعمل على تشويقهم وجذب انتباههم ، وبعد ان ينجح المدرس في ذلك يشجع التلاميذ على موازنة هذه الاشياء بعضها ببعض وملاحظة اوجه الشبه والخلاف بينها والوصول الى النتائج بأنفسهم بقدر ما تسمح به درجة نموهم العقلي ، فيعرض المدرّس امام التلاميذ كميات مختلفة في الحجم وكرات مختلف الوانها ويطالبهم بموازنة أطوال الاشياء وحجومها وانواعها بعضها ببعض . والاطفال بمدرسة

(١) من كتاب « طرق التربية الحديثة » . راجع وصفه في باب مكتبة المقتطف

دكرولي يزنون الطيور بانفسهم كل يوم ويلاحظون الفرق في وزنها يوماً بعد يوم كما يقوم الاطفال ايضاً بقياس الاطوال المختلفة ويستعملون لذلك ما يرون من المقاييس كطول اذرعتهم أو أقدامهم أو أصابعهم

والغرض الذي ترمي اليه المدرسة من مطالبة الاطفال بقياس الاطوال ووزن الاشياء هو تدريبهم وتعويدهم صحة الحكم . أما ما تتضمنهُ هذه من العمليات الحسابية المعقدة كالكسور مثلاً فلا يلتفت اليها التلاميذ ولا يعطيها لهم المدرّس الا اذا كانوا في مرحلة من النمو تمكنهم من فهمها وادراكها

ويستعين الاطفال في كل عملياتهم الحسابية بالمحسوسات التي يبدأ بها الطفل تعلّم العد والحساب فتضع المدرسة بين ايدي الاطفال عدداً من حبّات الفول والفواكه والخرز والاقلام وغيرها ويضع الاطفال الحبات الواحدة بجانب الاخرى الى عشر حبات ثم عشراً فعشرين فثلاثين الى المائة بعد ان يعدوها بالآحاد . ويستعمل الاطفال في قياس الحجوم وحدات يعرفونها ككوب الماء او زجاجة او ملعقة وهكذا

واثناء قيام الطفل بهذه العمليات والالعاب يوجه نظره الى ملاحظة خواص الاشياء التي يستعملها من حيث الصلابة والحرارة واللون والكثافة وما شاكل ذلك . وينشىء الاطفال مخازن يبيعون فيها ما لديهم من الاشياء ويشترون من زملائهم ما يحتاجون اليهِ واثناء قيامهم بعملية البيع والشراء يقيسون ويزنون ويتعلمون الحساب

ومن دروس الملاحظة ايضاً ملاحظة الوقت اثناء النهار واستخدام ساعة تعلق في الفصل لهذا الغرض ويدرَّب الاطفال على استخدامها ويتعلمون قراءتها ويوزعون بانفسهم اعمالهم على اليوم المدرسي

***

﴿ دروس الربط ﴾ في دروس الربط يشجع الاطفال على تعرف العلاقة بين الحقائق والاشياء التي يشاهدونها وتقع تحت ادراكهم وبين المعلومات والحقائق المودعة في ذاكرتهم وخزانة تجاربهم السابقة . لذلك يعمل المدرسون جهدهم لتوسيع دائرة تجارب الاطفال مستعينين في ذلك بالصور والقصص والوصف وغير ذلك من الوسائل التي تثير خيالهم وغريزة الاستطلاع فيهم وتشجعهم على البحث والتنقيب عن المعلومات المتعلقة بالارض ومن عليها وما فوقها وما في باطنها وما فيها من انهار وبحار وغابات وحواجز فيعمل بهِ بحثه الى معرفة العالم وما فيهِ من اناس واقوام يختلفون عنهُ في العادات والتقاليد فيدرس احوالهم وطرق معيشتهم ويتعرّف كيف يقضون اوقات فراغهم ويوازن بينهم وبين نفسه وبني جنسه وليس الغرض هو مجرد الحصول على مثل هذه المعلومات لذاتها ، بل المهم ان يربطها التلاميذ بعضها ببعض وان يوازنوا بين هذا وذاك ويسترجعوا معلوماتهم وتجاربهم الماضية ويربطوها ويوازنوا بينها وبين ما يجمعونه من المعلومات المستحدثة والتجارب الجديدة .

فالغرض الاساسي اذاً من دروس الربط هو مساعدة التلاميذ على استنتاج القواعد والأسس التي يحكمهم السير بمقتضاها والتي ترشدهم وتنيرلهم الطريق في حياتهم كما انها تشعر الاطفال بواجبهم نحو والديهم ونحو أبنائهم في المستقبل

فهم يتعرّفون كيف لاقى آباؤهم الصعوبات وتحملوا المشاق وكيف أعدّوا انفسهم لحياة الأبوة وما ينتظرهم فيها من مسئوليات ومتاعب

كذلك يدرس التلاميذ حياة الانسان الأول وهو في حالة الهمجية . وكيف كان يعمل العدد والآلات والاسلحة بنفسه فيقدرون بذلك قيمة الاشغال اليدوية ويوازنون بين حالة الانسان الاول وحالته التي هو عليها الآن وما ادخل عليها من اصلاح وما إعتراها من تقدم

ولنضرب لك مثلاً لذلك:—

درس على «الخبز» . أخذ التلاميذ حبات القمح وطحنوها بأنفسهم بين حجرين كبيرين . فقد تعلموا أن هذه هي الطريقة التي كان يستخدمها الانسان الاول

شعر الاطفال بتعب شديد وبعد الجهد حصلوا على الدقيق فأضافوا اليه الماء ثم وضعوه قطعاً صغيرة بين حجرين ساخنين جداً ، وبعد ان انتهوا من خبزه بهذه الطريقة الشاقة اكلوا منه ما شاءوا وكان ولا شك لذيذاً لانه من صنعهم

***

هذا هو خبز الانسان الاول . وهذه هي معلوماتهم وتجاربهم عنه ؛ ولكن لا بدّ من الموازنة بين طريقة صنع الخبز قديماً وبين ما استحدثه الانسان الحاضر من الطرق

فيقوم التلاميذ بزيارة لاحدى مخابز المدينة الحديثة حيث العدد والآلات الكهربائية فيدهشون من تقدم هذه الصناعة وسرعة العملية ويوازنون بينها وبين الطريقة القديمة

مثال آخر : في دروس على «المنازل» . بنى الأطفال منزلاً صغيراً بعد ان صنعوا الآجر بأنفسهم واحضروا مواد البناء وعملوها بأنفسهم كذلك . بعد يومين من بناء هذا المنزل الذي استغرقوا فيه مدة لا يستهان بها قامت زوبعة شديدة فلما حضر التلاميذ الى المدرسة في الصباح وجدوا منزلهم قد تهدم واصبح هشيماً تذروه الرياح في حين ان مدرستهم لم تتأثر كما لم تتأثر المباني الاخرى المجاورة فأخذوا يوازنون بين طريقة بنائهم وبناء المباني الاخرى بالمدينة

وهناك أمثلة كثيرة جداً لدروس الربط والموازنة هذه فكثيراً ما يحاول التلاميذ صنع الملاعق بأنفسهم ويوازنون بين نتيجة مجهودهم وبين ما تنتجه المصانع الكبرى في المدينة كما يصنعون القبعات والملابس وغير ذلك

ولدروس الربط هـذه قيمة تهذيبية كبيرة فهي تنمي روح التعاون بين التلاميذ وتقنعهم

بحاجة الانسان الى اخيه الانسان وهي كدروس الملاحظة عرضية تأتي عن طريق المصادفات وليست منظمة

***

﴿ دروس التعبير ﴾ يقسم دكرولي أعمال النشاط بالمدرسة التي تساعد التلاميذ على التعبير بأنواعه المختلفة الى قسمين :

التعبير الحسي بعمل النماذج والنقش والرسم والتصوير والاشغال اليدوية والتعبير المعنوي بالقراءة والكتابة والانشاء والمناقشة . وفي نظر دكرولي ان الاشغال اليدوية أهم هذه الاعمال كلها وهي تقسم في المدرسة الى عمل مشروعات متصلة بمواد الدراسة المختلفة وعمل أشياء لحديقة المدرسة يحتاج اليها التلاميذ اثناء قيامهم بتربية الحيوانات والطيور وعنايتهم بها . وتلاميذ مدرسة دكرولي يأتون في كل صباح ومعهم الكثير من الاشياء التي يهتمون بها . فهم يحضرون معهم الازهار والاحجار والصور والمجلات وغير ذلك ويترك اليهم أمر تنظيم هذه الاشياء وترتيبها ، ويرشدهم المدرّس اذا احتاجوا الى الارشاد وينصحهم اذا احتاجوا الى النصح ، حتى يقسموا ما جمعوه الى ثلاثة اقسام قسم لمملكة الحيوانية ، وقسم للمملكة النباتية ، وثالث للمملكة المعدنية . وهم يضيفون الى كل قسم من هذه الاقسام كل ما يقع تحت ايديهم يوماً بعد يوم

ولا يقتصر عمل التلاميذ على جمع هذه الأشياء وترتيبها بل هم بعد ذلك يرسمون ، ويعملون النماذج ، ويصورون بعض ما يجمعون . ويخصصون مكاناً بحجرة الدراسة يضعون فيه ما صنعوه بأنفسهم بنظام وترتيب خاص . وتجمع الصور بنظام معين فيعلق التلاميذ ظروفاً كبيرة على جدران الحجرة ويكتبون على كل منها ما يحتويه . فظرف للملابس . وآخر للطعام ، وثالث للمسكن ، ورابع لوسائل النقل ، وخامس للألعاب ، وسادس للنباتات وهكذا . وبعد ان يوزع المدرّس على التلاميذ صوراً مختلفة يطلب اليهم التمييز بينها ووضع كل منها في الظرف الخاص بها . .. وهم اثناء قيامهم بهذا العمل يذهبون ويجيئون بنظام وهدوء وحرية تامة واهتمام كبير

وهذه العملية تشجع التلاميذ على التفكير كما تدربهم على ضبط النفس وتكوّن فيهم الاعتماد على النفس وتعودهم احترام حقوق الغير . ويكلف التلاميذ البحث عن المعلومات بأنفسهم في الكتب والمجلات والجرائد والاعلانات والمحال التجارية ومكاتب السياحة وغيرها . وليست دروس التعبير منفصلة عن دروس الربط بل تتصل بها اتصالاً وثيقاً

ويشجع التلاميذ على جمع الصور والنماذج والأشياء في منازلهم وتنظيمها وتقسيمها كما يعملون في المدرسة تماماً . ولا بدّ من ان يدوّن التلاميذ بأنفسهم ملاحظاتهم وما يحصلون عليه من المعلومات اثناء دروس المشاهدة والربط والتعبير في كراسة خاصة يوضحونها بالصور والرسوم والألوان ، ويعنون بها عناية خاصة فهي عبارة عن ملخص للموضوعات التي يدرسونها جميعاً